حتى كاد الانسان يلتحق بالحيوانات فلنورد فصلا في عجائب القلب واعلم ان ههنا الفاظا تمس الحاجة الى معرفة معانيها وهي
اربعة القلب والروح والنفس والعقل اما القلب فهو يطلق على معنيين احدهما اللحم الصنوبري الذي في تجويفه دم اسود
والثاني لطيفة ربانية روحانية لها تعلق بالقلب الجسماني هي المدرك من الانسان والمكلف والمخاطب وبها يتميز
الانسان عن سائر الحيوانات بل هي حقيقة الانسان المخلوقة في احسن تقويم واما الروح فهو يطلق تارة على هذه اللطيفة
وتارة على البخار الذي ينبعث من ذلك الدم الاسود وينتشر بواسطة العروق الى جميع اجزاء البدن وفيضان
نور الحيوة والحس والحركة والسمع والبصر والذوق واللمس والشم منه يضاهي فيضان النور من السراج الذي
يدار في زوايا البيت وقد اشار اليه سالفا والروح بهذا المعنى يسمى حيوانيا واما النفس فهو ايضا يطلق على امرين
احدهما المعنى الجامع للصفات الذميمة كما قال عليه السلام اعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك وثانيهما اللطيفة المذكورة
الا ان لها احوالا مختلفة واوصافا متفاوتة تسمى بكل اعتبار باسم فان النفس اذا سكنت تحت الاوامر وزايلها
الاضطراب بسبب معارضة الشهوات سميت مطمئنة واذا لم يتم سكونها وصارت موافقة للقوة الشهوانية تارة
ومعترضة عليها اخرى سميت لوامة لانها تلوم صاحبها عند التقصير في العبادة وان تركت الاعتراض واطاعت مقتضى
الشهوات سميت امارة وقد تسمى باسماء اخر مثل الملهمة وغيرها باعتبارات شتى فالمسمى ليس الا واحدا واما
العقل فيطلق تارة على العلوم المدركة باللطيفة المذكورة وتارة على نفس تلك اللطيفة ثم ان للقلب جنودا وبيانه
انه لما كان اكتساب الكمالات الانسانية موقوفا على البدن فلا بد من حفظه بجلب ما يوافقه ودفع ما ينافره فانعم الله
عليه لجلب الموافق بجندين باطن وهو الشهوة وظاهر وهو آلاتها ولما توقف الشهوة للشيء والنفرة عنه على معرفة
انعم عليه في المعرفة بجندين باطنيين احدهما الادراكات الحسية ومنازلها الحواس الخمس وثانيهما القوى
الخمس ومنازلها تجاويف الدماغ وبطونها فاذا علم الموافق اشتهاه واذا علم المنافر نفر عنه وانبعث نحو
دفعه والباعث يسمى ارادة والمحرك للاعضاء قدرة فجميع جنود القلب بكثرتها يرجع الى القدرة والارادة
والقوى الدراكة الظاهرة والباطنة فلما اصطحب في الانسان هذه الجنود اجتمعت فيه اربعة اوصاف سبعية
تحمله على العداوة وبهيمية تحمله على الشره والحرص وربانية تحمله على الاستبداد والانسلال عن القيود السفلانية
والاطلاق عن ربقة العبودية وشيطانية تحمله على المكر والخداع فالسعيد من تسخرت نفسه للصفة الربانية
فجعل الله تعالى مقصوده والدار الآخرة مستقره والدنيا منزله والبدن مركبه واللسان ترجمانه والاعضاء كتابه وخدمه
والحواس جواسيسه تؤدي ما تطلع عليه من المحسوسات الى الخازن ثم تعرض الخازن على الملك اعني حقيقة الانسان
فيقتبس منه ما يحتاج اليه في تدبير مملكته ونيل السعادة في آخرته ثم ان للقلب اعمالا اربعة قبل عمل الجوارح

الاول

الاول الخواطر والثاني تحرك الرغبة بما خطر بحكم الطبع ويسمى ميل الطبع وهذان لا يؤاخذ العبد بهما لانهما ليسا باختياره
وهذا هو المراد بقوله عليه السلام ان الله تجاوز عن امتي ما وسوست به صدورها ما لم تعمل به او تتكلم والثالث
حكم النفس بان هذا امر قبيح ينبغي ان يفعل وهذا ايضا لا يؤاخذ به وان كان اختياريا اذ لا عزم والرابع تصميم العزم
على الفعل وان لم يفعل لمانع وهذا يؤاخذ به العبد وهو المراد بقوله تعالى ان تبدوا ما في انفسكم او تخفوه يحاسبكم به الله
ومما ينبغي ان يعلم ان الخاطر نوعان احدهما ما يدعو الى الخير وسببه الملقى له في القلب يسمى ملكا فان عرف السبب
سمي ذلك الخاطر وحيا وان لم يعرف السبب سمي الخاطر الهاما ونفثا في الروع وعلما لدنيا وثانيهما خاطر يدعو
الى الشر ويسمى وسواسا وسببه الملقى له يسمى شيطانا وقد يلقي الشيطان خيرا ويدعو اليه ليفوت منه ما هو افضل منه
فقلب المؤمن دائما بين الملك والشيطان وهما المراد بالاصبعين في قوله عليه السلام قلب المؤمن بين اصبعين من اصابع الرحمن
يقلبها كيف يشاء من الخاطر ما يقع بمباشرة اسباب من العبد وهي اما النظر والاستدلال كما في طريقة الاستدلاليين
واما تهذيب الباطن وتصفيته وهي طريقة الصوفيين فان القلب مستعد لان يتجلى فيه حقائق الاشياء عند مقابلة
مرآته لمرآة اللوح المحفوظ وخلوه عن الحجب فاذا ارتفع الحجب والموانع وتطهر القلب عن لوث الاخلاق الذميمة ودنس
الملكات الردية وانفتحت ابواب القلب نحو ملكوت السموات والارض واتصل بالملاء الاعلى والمبادي العالية انعكس اليه
ما فيها من صور الحقائق والعلوم والمعارف فصار عالما عقليا مضاهيا للعالم الحسي قال الله تبارك وتعالى سنريهم آياتنا
في الآفاق وفي انفسهم وهذا هو المراد بليلة القدر فانها ليلة ينكشف للنفس فيها احوال الملك والملكوت كما قال تعالى شأنه
وكذلك نري ابرهيم ملكوت السموات والارض ولما كان اكثر ما يتجلى مرآة القلب في شهر رمضان الذي انزل فيه القرآن
بواسطة الصوم الذي هو تضييق مجاري الشيطان في بدن الانسان صار مصادفة ليلة القدر في رمضان اكثر
الا يرى ان من حصل هذه المرتبة في غير رمضان ايضا فقد صادف ليلة القدر فملاك الامر هو رفع موانع القلب
وتصفية مرآته وتصقيله وتلك الموانع خمسة احدها نقصان في الذات واصل الفطرة كقلب الصبي والمجانين
والثاني كدورة المعاصي وحب الشهوات قال تعالى كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون والثالث العدول عن الجهة
وهو الاشتغال بالامور الدنيوية والرابع الاعتقادات الباطلة والجهليات المركبة والظنون الفاسدة المركوزة
في الطبع قال تعالى ان هم الا يخرصون الخامس الجهل بطريق العثور الى المطلوب كما في زهاد الكفرة والرهابين
قال تعالى ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم فاذا ارتفع هذه الموانع صار القلب كمرآة مجلوة حوذي بها ما
يقابلها من الصور العلمية والحقائق المستفادة اما من الخارج وطرق الحواس الظاهرة التي هي كالانهار المخرقة بالنسبة
الى حوض القلب واما من الباطن والابواب المفتوحة نحو الملاء الاعلى الا ان ينصب من الانهار الخارجية

Copyright © King Saud University

Created with PDFsharp 1.2.1269-g (www.pdfsharp.com)